مقدمة الملف

ليلى الخطيب

لا شكّ في أنّ وجود جنسيْن ـ أنثى وذكر ـ هو أكثر ما قد يَلْفت انتباهَ الناظر إلى الحياة على الأرض، حسب قول فرويد. ولا ريب في أنّ شرط هذا الاختلاف هو هو شرطُ وجودنا، إذ لا حياة من دونه. ولهذا فإنّ الاختلاف الجنسيّ لم يفتأ يُشكّل صيغةَ وجودنا كبشر، كما لم نفتأْ، نحن البشرَ، نتشكّل به. غير أنّ الاختلاف الجنسيّ ليس محضَ شرط بيولوجيّ ـ طبيعيّ يَضْمن استمراريةَ جنسنا البشريّ. أو دعنا نقلْ: ليس الاختلاف الجنسيّ بوصفه شرطًا طبيعيّاً هو ما يَشْغلنا أساسًا في هذا الملفّ ؛ فوجود جنسيْن معطًى بدهيّ لا يتطلّب في حدّ ذاته الدراسةَ والتحليلَ على المستوى الفكريّ. لكنْ، إنْ كان واقعُ الاختلاف الجنسيّ واقعًا بدهيّاً، فإنّ الأمر يختلف تمامًا ما إنْ نتطرّق إلى تمثُّلات هذا الاختلاف أو تجلّياته، أو بالأحرى ما إنْ نقرأ **آثارَ** هذا الاختلاف في الحقل الإبداعيّ حيث تَنْسج اللغةُ أو الصورةُ (أو غيرُها من وسائل التعبير) حضورًا وعلاقاتٍ متميّزةً ومختلفةً لهذا الاختلاف الجنسيّ. بهذا المعنى، يأتي هذا الملفّ لا ليعالج موضوعًا محدّدًا ـ مغْلقًا هو «الاختلاف الجنسيّ،» بل ليَطْرح أسئلةً على المستوى الفكريّ والإبداعيّ يَنْظر من خلالها إلى حدود الأنوثة والذكورة وصفاتِها المتعارَفِ عليها. ذلك أنّ السؤال حول الاختلاف الجنسيّ هو في نظرنا، بل في نظرِ مَنْ عالجوه فكريّاً وفلسفيّاً (وفي مقدّمهم جاك دريدا وهيلين سيكسو)، تساؤلٌ أنطولوجيّ لمّا يزل يبلور لغةً وفهمًا ليحاور بهما صيغةَ وجودنا كبشر: إنّه، باختصار، محاولةٌ لمقاربة الإنسانيّ على نحوٍ يتجاوز المنطقَ الثنائيّ الضيّق لحدود الأنوثة والذكورة.

إنّ الهمّ الأوّل لهذا الملفّ هو السؤال والتساؤل حول تلك الثنائية المطْلقة، ثنائيةِ الأنثويّ والذكوريّ أو النسويّ والرجوليّ... إلى غيرها من التصنيفات التي تضع حدودًا فاصلة بين هذا (الذَّكر، الرجل) وتلك (الأنثى، المرأة)، ناسبةً خصوصياتٍ وصفاتٍ محدّدةً إلى كلّ من الطرفين. وما طرحُ الاختلاف أو سؤالُه إلاّ سبيلٌ للخروج عن منطق الثنائية هذا، في محاولةٍ لمقاربة البيْن ـ أيْ ما هو بيننا وهو سرُّنا ولغزُنا. إذ ليس الاختلاف فيَّ أو فيك أو عندي أو عندك، وإنّما هو بيننا: فكيف لي، إذنْ، أن أحدّه وأُحدّده؟ بل كيف لي أعرفَه وأعرِّفَ به؟ وما من مكانٍ «أَمْثل» أو ما من مكان أساسٍ يتجلّى فيه ويُصاغ به هذا الاختلافُ ـ البَيْنُ غير النصّ الإبداعيّ بمعناه الواسع. فالإبداع، من حيث هو لغة يحاور بها الإنسانُ وجودَه، قد يكون بالفعل أكثرَ الأمكنة اختزانًا لآثار الاختلاف الجنسيّ ومعانيه.

إنّ ملفّ «أسئلة الاختلاف الجنسيّ» يُسْهم بلا ريب في طرح أسئلة مستجدّةٍ نوعًا ما على الساحة الفكرية والثقافية العربية. ولقد أردنا لهذه الأسئلة أن تتشكّل كمساحة للاختلاف، لا لتقديم إجابات. لذا رأينا **أولاً** أن تتوزّع المساهمات على ثلاثة مفاصل هي:

ـ الاختلاف الجنسيّ باعتباره سؤالاً مطروحًا على المستوى الفكريّ.

ـ الاختلاف الجنسيّ في الإبداع العربيّ، أدبًا وفنّاً.

ـ الاختلاف الجنسيّ من منظور المبدِعات والمبدِعين.

ورأينا **ثانيًا**، وخاصةً، أن يقرأ كلُّ مَنْ شارك في هذا العمل سؤالَ الاختلاف من منظوره. ففي رأينا أنّه إنْ كان ثمة مِنْ خيار يثير تعدُّدَ الآراء والقراءات وثراءها فهو خيار الاختلاف في الاختلاف. وإنِ اتّجهتْ مجملُ مقالات هذا الملفّ نحو نقدِ منطق الثنائية بما هو منطقٌ مُحِدٌّ ومحدود، فإنّ كلّ واحدة منها عبّرتْ على طريقتها الخاصة عن هذا التوجّه.

ففي إطار الدراسات الفكرية أو النظرية، ركّزتْ آن بيرجيه على فهم الاختلاف الجنسيّ عند كلٍّ من جاك دريدا وهيلين سيكسو، بينما تطرّق ثائر ديب إلى أهمية البعد الثقافيّ ـ الاجتماعيّ لطرح الجُنُوسة (الجندر) ومَيَّزه عن الطروحات النسوية. أمّا أنطوانيت فُوك فلقد عَرضتْ لفكرٍ تحليليّ نفسيّ جديد يفكّك النظامَ القضيبيَّ الذكوريّ ويعيد الاعتبار للعمل التكوينيّ الذي يؤدّيه الرحمُ النسويّ ـ الأموميّ.

وفي المجال التحليليّ ـ الأدبيّ، تناولتْ ثلاثةُ أبحاث تجلّيات الاختلاف الجنسيّ في الإبداع العربيّ والغربيّ : فأكّدتْ يمنى العيد ضرورةَ وضع الحديث عن ضدّية أنثوية ـ ذكورية في

الخطاب الأدبيّ في إطار الصراع السياسيّ التاريخيّ لعلاقات السلطة داخل المجتمع، بانيةً طرحَها على تحليل لروايتيْن لبنانيتيْن يُظهر ارتباطَ علاقات الأنوثة والذكورة بالبعد الاجتماعيّ. أما أُسَيْمة درويش، فلقد سعتْ إلى تبيان تداخُلِ صفات الأنوثة والذكورة في أعمال الشعراء والفنّانين، الأمرُ الذي تجلّى خاصةً في رواية **أورلاندو** لڤرجينيا وولف. وحاولتْ معدّةُ الملفّ قراءةً لما أسْمتْه «الكتابةَ الاختلافية» في روايةٍ لأهداف سويف، فبيّنت فيها حركةَ التقاطع أو التصالب بين الأزواج الاختلافية، ومن أهمُّها الذكورةُ والأنوثة.

تتوزّع بقيةُ مساهمات الملفّ بين حوار مع الفنّان التشكيليّ سمير الصايغ حول عشق الحروف المؤنَّثة والمذكَّرة في الخطّ العربيّ، ونصٍ إبداعيّ لجهاد توما يَصُوغ الاختلافَ على حدود العامية اللبنانية والفصحى العربية وعلى حدود العِرْق والجنسِ أيضًا. أمّا شهادات المبدِعات والمبدِعين فلقد جاءت متنوّعةً تنوُّعَ تجاربهم/ نَّ الإبداعية: فكتبت الروائية عالية ممدوح عن تجربتها في رواية **الولع** وعن منظورها الخاصّ إلى علاقات العشق. وصاغ المُخْرجان السينمائيّان جوانا حاجي توما وخليل جريج نصّيْن مختلفيْن ـ متداخليْن عن تجربتهما الحميمة والفنية في تصويرِ فيلمٍ قصير خلال فترة حمل جوانا. واستحضرتْ ندين توما، في صياغة جديدة، تجهيزًا فنيّاً لها عالجتْ فيه تجاربَ ٧ بنات هوى في شارع الحمرا في بيروت. أما المُخْرج أكرم زعتري فلقد جاءت شهادتُه عن عمليْن فنييْن له بمثابة مانيفستو يطالب بمجتمعٍ أكثرَ قبولاً بالاختلاف، لذا رأينا أن نَفْتح به نهاية هذا الملفّ على الأمل في أن يظلّ السؤالُ والتساؤلُ شرطًا من شروط المعرفة والتغيير. وربما كان صدورُ ملفّنا في هذا الظرف العالميّ والعربيّ سبيلاً نؤكّد به تمسُّكَنا بالمعرفة والإبداع والاختلاف، وسائلَ لمقاومة الهيمنة الأُحادية.

عميقُ الشكر لكلِّ مَنْ كَتَبَ في هذا الملفّ، لا لأنّه شارك فيه فحسب بل لأنّه سأل وحاول وفكّر معي ومعنا. كما أشكر يمنى العيد وسماح إدريس لما بذلاه من جهد في هذا الإعداد. وأشكر سمير الصايغ لروحه الفنية الحاضرة في هذا الملفّ. وشكرٌ أيضًا لعلويّة صبح وعناية جابر وميشلين وحاتم. وإنْ كان لي من شكر خاصّ في بداية هذا الربيع حيث تتجدّد الحياةُ في اختلافها فإنّي أشكر مَنْ به ومعه صار الاختلافُ حياةً.

بيروت

المشاركون

أبحاث : آن بيرجيه، ثائر ديب، يمنى العيد، أُسَيْمة درويش، أنطوانيت فُوك، ليلى الخطيب.

مقابلة : سمير الصايغ.

قصيدة : جهاد توما.

شهادات : عالية ممدوح، جوانا حاجي توما وخليل جريج، ندين توما، أكرم زعتري.